اسم الدرس : تفسير سورة المسد

تصنيف الدرس : خطبة

مقدمة

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد، {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}[الأنعام:١]، {الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا}[الكهف:١]، الحمد لله عدد كل شيء، الحمد لله ملء كل شيء، الحمد لله عدد ما أحصى كتابه، الحمد لله على ما أحصى كتابه، وصلاةً وسلاماً دائمين من رب العالمين على أشرف المرسلين محمد -صلى الله عليه وسلم-، بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح لهذه الأمة، فما ترك خيراً إلا ودلنا عليه، وما ترك شراً إلا و حذرنا منه، فصلاةً وسلاماً دائمين من رب العالمين على محمد -صلى الله عليه وسلم-{ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون}[ال عمران:١٠٢].

أما بعد، أحبتي في الله نكرر دائماً وأبداً أن من رحمة الله -عز وجل- بعباده أنه لم يتركهم سُدى ولم يخلقهم عبثاً ولكن خلقهم لغاية، قال ربنا -سبحانه وتعالى- {وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون}[الذاريات:٥٦] ولتحقيق هذه الغاية على الوجه الأمثل كما يحب ربنا -سبحانه وتعالى- ويرضى أرسل الرسل وأنزل الكتب ليكون الناس على بينة من أمرهم، ليحيا من حيي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، واصطفى الله -عز وجل- لهذه الأمة خير الرسل محمد -صلى الله عليه وسلم- واصطفى لها خير الكتب القرآن الكريم فمن تمسك بكتاب الله وبسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد نجا وأفلح، ومن أعرض عنهما فقد خاب وخسر.

معنا اليوم أحبتي في الله سورة من سور القرآن العظيم، هذه السورة قصيرة في عدد الآيات ولكنها عظيمة في المعاني، هذه السورة اصطفى الله -عز وجل-لها هذا الموضع بتوفيق من الله -عز وجل- لصحابة النبي -صلى الله عليه وسلم- أو بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم، اصطفى لها هذا الموضع من المصحف في ختام المصحف قبل المعوذات، هذه السورة هي" سورة المسد".

موضع سورة المسد في ختام المصحف

بسم الله الرحمن الرحيم

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ١ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٢ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ٥

{تبت يدا أبي لهب وتب} هذه السورة التي يجدها قارئ القرآن وهو يقلب في نهايات صفحات المصحف قبل أن يختم بالمعوذات {قل هو الله أحد}، {قل أعوذ برب الفلق}، {قل أعوذ برب الناس}.هذه السور الثلاث –المعوذات– التي يتجه فيها المؤمن إلى ربه موحدًا مخلصًا، يعلم أن الله –عز وجل–هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، فيضمن منه أن يعيذه من شرور المخلوقات ومن الشيطان الرجيم.

قبل هذا التوجه يُختم المصحف بهذا الخبر أو بهذا الدعاء {تبت يدا أبي لهب وتب}، وأنتم تعلمون أنه دائماً للمقدمة شأن وللختام شأن، واصطفى الله –عز وجل–الفاتحة ليُفتتح بها القرآن، ويُفتتح بها في الصلاة، كذلك أيضًا اصطفى الله –عز وجل–هذه سورة للختام {تبت يدا أبي لهب وتب}.

لذلك اهتم بها جمع من المتقدمين، وجمع من المتأخرين، ففسروها أثناء تفسيرهم لكتاب الله –عز وجل– أو أفردوها بالتصنيف، من المتأخرين مثل عبد الحميد الفراهي و محمد توفيق سعد أفردوها بالتصنيف لعِظم هذه السورة ولعظم شأنها.

في ختام المصحف في قوله سبحانه تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}[النصر:١] وقوله سبحانه وتعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} قبل المعوذات، في هذا الختام بُشرى لأهل الإيمان، بُشرى أن الله – عز وجل–ناصرٌ نبيه، وأن الله –عز وجل–يُحبط سعي كل من اعترض طريق نبيه –صلى الله عليه وسلم– أو طريق المؤمنين الذين يسيرون على هدي النبي– صلى الله عليه وسلم–.

في سورة النصر، "سورة البُشرى" حيث ترى المؤمنين يقدِمون إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–أفواجًا يعلنون إسلامهم، ثم في سورة {تبت يدا أبي لهب وتب} ترى مصير الكافرين الصادين عن سبيل الله {الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب}[النحل:٨٨]، {الذين كفروا وصدوا

عن سبيل الله أضل أعمالهم﴾[محمد:١]، لم يكتفوا بالكفر بل صدوا عن سبيل الله عز وجل؛ لذلك كان عذابهم مُعظمًا وشديدًا.

قال ربنا –سبحانه وتعالى–في هذه السورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

فاذا كانت **سورة النصر تبين لنا مآل الذين أنعم الله –عز وجل– عليهم** كما نقول في سورة الفاتحة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[الفاتحة:٦-٧]، **فسورة المسد تبين حال الذين غضب الله –عز وجل– عليهم، وتبين حال الضالين الذين تركوا طريق الله –عز وجل– وصدوا عن سبيل الله.**

إذا كانت سورة الكوثر تبين لنا مقدار وعظم عطاء الله سبحانه وتعالى لنبيه في الآخرة: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر:١] ...وسورة النصر توضح عطاء الله عز وجل لنبيه في هذا الفتح الدعوي المبين﴿ ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا﴾[النصر:٢] ...فسورة ﴿تبت﴾تبين لنا عطاء الله لنبيه في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾[الكوثر:٣].

أيضا هذه السورة التي خُتم بها المصحف قبل المعوذات، تبين لنا بدء الدعوة، كيف كانت في استضعاف، كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم– (أُخفت في الله وما يُخف أحد، و أوذيت في الله و ما يؤذى أحد)[1]، أي مر على النبي –صلى الله عليه وسلم– أوقات و مر على الإسلام أوقات الوحيد الذي كان يؤذَى هو النبي –صلي الله عليه وسلم–، بدأ الدعوة وحيداً –صلي الله عليه وسلم–.

فإذا كانت **سورة النصر تبين لنا ختام الدعوة** و كيف جاء المؤمنون أفواجاً إلى النبي –صلى الله عليه وسلم–، **فسورة المسد تبين لنا بدء الدعوة** حتى نتذكر دائماً هذه اللحظة، حتى نتذكر دائماً هذا البذل الذي بُذل لنشر هذا الدين، وأن الله –عز وجل– ناصرٌ نبيه وناصرٌ دينه مهما حدث و مهما مرت الدعوة بلحظات استضعاف.

١ [عن أنس بن مالك:] لقد أُوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ ولقد أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ ولقد أتَتْ عَلَيَّ ثلاثٌ مِن بيْنِ يومٍ وليلةٍ وما لي طعامٌ إلّا ما واراه إبْطُ بلالٍ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٥٦٠ • أخرجه في صحيحه

البداية خبر أو دعاء

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} هكذا تبدأ السورة بخبرٍ قاطع أو بدعاءٍ حاسم بصيغة الماضي، {تبت يدا أبي لهب وتب}، التباب: هو القطع المؤدي إلى الإهلاك...كما قال البقاعي: التباب القطع وليس أي قطع، فأنت يمكن أن تقطع شيئاً لكن لا يؤدي إلى هلاكه، بل يستكمل حياته أو يستمد قوته من شيء آخر، لكن إذا كان التباب من الله –عز وجل–فلا حياة بعده، {تبت يدا أبي لهب وتب}. إذا جاء هذا التب من الله سبحانه وتعالى لعبد من عبيده فقد خاب وخسر وهلك، {تبت} بصيغة الماضي تفيد القطع {تبت يدا أبي لهب وتب}.

تخيل في لحظات الاستضعاف في مكة، حينما يقوم المؤمنون بقراءة هذه السورة في جوف الليل!، إنها تعطيهم القوة النفسية لمواجهة أعداء الله مهما كانوا في استضعاف، هم يتلقون أمر الله –عز وجل– بقراءة هذه السورة {تبت يدا أبي لهب وتب}، يقفون هذا الموقف في الصلاة وهم في قمة الاستضعاف، لكنهم يستمدون قوتهم من الله سبحانه وتعالى، يعلمون أن الله عز وجل ناصرهم على أعدائهم ولا شك.

{ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } حينما يقرأ المؤمن هذه السورة يتعجب من هذه البداية كقوله سبحانه وتعالى { وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ }[المطففين:١]،{وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ }[الهمزة:١]، حينما تبدأ السورة بالعقاب. حينما تبدأ السورة بهلاك يخاف المؤمن و يسأل: أيُ شيءٍ استجلب للإنسان الويل، وأي شيء جلب للإنسان الهلاك حتى يبتعد عنه، حتي لا يدعو الإنسان على نفسه وهو يصلي، قد يكون الإنسان متلبساً بالصفة التي فعلها أبو لهب فيدعو على نفسه من حيث لا يشعر، هذه السورة تبين لنا مصير الصادّين عن سبيل الله، فحينما يقرأ المؤمن هذه السورة يخشى أن يكون من الصادّين عن سبيل الله، أن يدعو على نفسه وهو لا يشعر.

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} قال أهل العلم لماذا قال الله –عز وجل– "يدا" أبي لهب وتب؟ قال بعضهم: لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– حينما بدأ الدعوة –كما في البخاري ومسلم– صعد علي الجبل[٢]

---

٢ [عن عبدالله بن عباس:] لَمَّا نَزَلَتْ: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} ورَهْطَكَ منهمُ المُخْلَصِينَ، خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ حتّى صَعِدَ الصَّفا فَهَتَفَ: يا صَباحاهْ فَقالوا: مَن هذا؟ فاجْتَمَعُوا إلَيْهِ، فَقالَ: أَرَأَيْتُمْ إنْ أَخْبَرْتُكُمْ أنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ مِن سَفْحِ هذا الجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: ما جَرَّبْنا عَلَيْكَ كَذِبًا، قالَ: فإنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ قالَ أبو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ، ما جَمَعْتَنا إلّا لِهذا؟ ثُمَّ قامَ، فَنَزَلَتْ: {تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبَّ} وقدْ تَبَّ، هَكَذا قَرَأَها الأَعْمَشُ يَومَئِذٍ. /البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٧١ • [صحيح] •

وقال: (يا صباحاه)ثم أنذر قريش بعذاب من الله –عز وجل– إن لم يؤمنوا، فقال له أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا! فكما دعا على النبي –صلى الله عليه وسلم–رجع دعاؤه عليه، فكأنما دعا على نفسه فقال الله –عز وجل–: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}، ارتد كلامه عليه.

وقال بعضهم بأن أبا لهب ذهب إلي النبي صلي الله عليه وسلم بعد بدء الدعوة، وقال له: أي شيء لي إن أنا أتبعتك؟ بأي شيء تخصني في هذا الدين؟ فقال:(لا شيء)[٣]، النبي –صلى الله عليه وسلم– عبد يبلغ دين الله –عز وجل– لا يملك شيئًا إلا بأمر من الله –سبحانه وتعالى–، فقال له: (لا شيء)، فقال: تبًا لهذا الدين، هو اعتاد على السؤدد وعلى الرئاسة، فرفض أن يكون واحداً مثل الناس! فقال: تباً لهذا الدين، فنزل قوله تعالى {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}

وقيل أيضاً –كما روى بعض السلف– كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يمشي في السوق بين الناس، رجلًا وضيئًا يمشي بين الناس، يُكلم الناس عن التوحيد، ثم جاء رجل خلفه من أشراف قريش يسير خلفه ويرميه بالحجارة بكلتا يديه، فتعجب فقال من هذا؟ فقالوا هذا محمد –صلى الله عليه وسلم – جاء بدين جديد، وهذا عمه ينفر الناس عنه[٤].

انظر إلي هذه السورة العجيبة، تصور جهد عم النبي –صلى الله عليه وسلم–!، جهد هذا الرجل المشرك الكافر لصد الناس عن سبيل الله!، وانظر إلى السورة التي قبلها سورة النصر، كيف يأتون أفواجاً إلى النبي

---

٣ (حدثني يونس ، قال : أخبرنا ابن وهب ، قال : قال ابن زيد ، في قول الله : (تبت يدا أبي لهب وتب) قال : التب : الخسران ، قال : قال أبو لهب للنبي صلى الله عليه وسلم : ماذا أعطى يا محمد إن آمنت بك ؟ قال ؟ "كما يعطى المسلمون" ، فقال : مالي عليهم فضل ؟ قال : "وأي شيء تبتغي ؟ " قال : تبا لهذا من دين تبا ، أن أكون أنا وهؤلاء سواء ، فأنزل الله : (تبت يدا أبي لهب) يقول : بما عملت أيديهم) . تفسير الطبري

٤ [عن طارق بن عبدالله المحاربي:] رأَيْتُ رسولَ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّم في سوقِ ذي المَجازِ وعليه حُلَّةٌ حمراءُ وهو يقولُ: (يا أيُّها النّاسُ قولوا: لا إلهَ إلّا اللهُ تُفلِحوا) ورجُلٌ يتبَعُه يرميه بالحجارةِ وقد أدمى عُرقوبَيْهِ وكعبَيْهِ وهو يقولُ: يا أيُّها النّاسُ لا تُطيعوه فإنَّه كذّابٌ فقُلْتُ: مَن هذا؟ قيل: هذا غلامُ بني عبدِ المُطَّلبِ قُلْتُ: فمَن هذا الَّذي يتبَعُه يَرميه بالحجارةِ؟ قال: هذا عبدُ العزّى أبو لَهَبٍ قال: فلمّا ظهَرَ الإسلامُ خرَجْنا في ذلك حتّى نزَلْنا قريبًا مِن المدينةِ ومعنا ظَعينةٌ لنا فبَيْنا نحنُ قُعودٍ إذ أتانا رجُلٌ عليه ثوبانِ أبيضانِ فسلَّمَ وقال: مِن أينَ أقبَلَ القومُ؟ قُلْنا: مِن الرَّبَذةِ قال: ومعنا جَملٌ قال: أتبيعونَ هذا الجَمَلَ؟ قُلْنا: نَعم قال: بِكَمْ؟ قُلْنا: بكذا وكذا صاعًا مِن تمرٍ قال: فأخَذه ولم يستنقِصْنا قال: قد أخَذْتُه ثمَّ توارى بحيطانِ المدينةِ فتلاوَمْنا فيما بيْنَنا فقُلْنا: أعطَيْتُم جَمَلَكم رجُلًا لا تعرِفونَه قال: فقالتِ الظَّعينةُ: لا تلاوَموا فإنِّي رأَيْتُ وَجْهَ رجُلٍ لَمْ يَكُنْ لِيحقِرَكم ما رأَيْتُ شيئًا أشبَهَ بالقمرِ ليلةَ البدرِ مِن وجهِه قال: فلمّا كان مِن العَشيِّ أتانا رجُلٌ فسلَّمَ علينا وقال: أنا رسولُ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: (إنَّ لكم أنْ تأكُلوا حتّى تشبَعوا وتكتالوا حتّى تستَوْفُوا) قال: فأكَلْنا حتّى شبِعْنا واكتَلْنا حتّى استَوْفَيْنا قال: ثمَّ قدِمْنا المدينةَ مِن الغَدِ فإذا رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائمٌ يخطُبُ على المِنبَرِ وهو يقولُ: (يدُ المُعطي يدُ العُلْيا وابدَأْ بِمَن تعولُ أمَّكَ وأباكَ أُختَكَ وأخاكَ ثمَّ أدناكَ أدناكَ) فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ هؤلاءِ بنو ثَعلبةَ بنِ يَربوعٍ قتلوا فُلانًا في الجاهليَّةِ فخُذْ لنا بثأرِنا منه فرفَعَ رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يدَيْهِ حتّى رأَيْتُ بَياضَ إبْطَيْهِ وقال: (ألا لا تَجني أمٌّ على ولَدٍ ألا لا تَجني أمٌّ على وَلَدِ ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٥٦٢ • أخرجه في صحيحه •

-صلى الله عليه وسلم-!، حقًا خاب سعيه!، حقًا ما أغنى عنه ماله وما كسب!، هذا الجهد أنفقه وكان عليه حسرة، فلذلك قالوا بأنه كان يرمي الحجارة بكلتا يديه، فقال الله -عز وجل- {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}

وقال بعض أهل العلم: اليدان هنا مجاز عن قوته وسلطانه وجبروته... فانظر وتأمل كيف أن الله -عز وجل- أهلك سلطانه أولًا!، أكثر شيء يصيب صاحب السلطان أو صاحب القوة بالحسرة أن تذهب منه قوته، يصاب بالحسرة، يصاب بالعجز.

قارون حينما تُخسف داره أولاً يصاب بالعجز، ثم يخسف هو فيصاب بالحسرة... كما رأى صاحب الجنتين جنتيه وهما تهلكان أمامه، فقال: {يا ليتني لم أشرك بربي أحدًا}[الكهف:٤٢]، ظل يضرب كفاً على كف وندم أشد الندم. فخسر أبو لهب قوته أولًا { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ} ثم خسر هو{وَتَبَّ } أي: وتب هو... أو "قد تب" كما في قراءة شاذة، أي: وقد خسر هو، خسر قوته وخسر نفسه، خسر أهله وماله.

أبو لهب

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} كان يُكنى بأبي لهب؛ قيل لأنه كان ذا وجهٍ وضيء مشرق كأن فيه لهب، فاختار الله -عز وجل-هذه الكنية إشارة إلى أنه سوف يُلقى في جهنم، وأن هذا الجمال -جمال الوجه- يصبح قبحًا يوم القيامة، وأن الإنسان ليس بشكله ولا بنسبه ولا بماله، ولكن بعبادته... وقيل لأنه كان اسمه "عبد العزى"، فالقرآن لم يستعمل هذا اللفظ المنكر "عبد العزى "، فاختار هذا الوصف المشهور به "أبا لهب" وكما قلنا اشتُق له من هذا الاسم نصيبًا في النار -والعياذ بالله-.

مصير من يريد أن يصرف الناس عن الدعوة إلى الله

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} القطع: أي الهلاك والخسران لكل من اعترض طريق الدعوة، لكل من حاول أن يصرف الناس عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وعمن يسيرون خلفه وعلى منهجه -صلى الله عليه وسلم-، كل من يريد أن يصرف الناس عن الدعوة إلى الله -سبحانه وتعالى- وعن العلماء هذا مصيره في الدنيا أو في الآخرة {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ}.

{مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} ما: إما نافية تتكلم عن حقيقة أن هذا قد حدث بالفعل، فلم يغنِ عنه ماله شيئاً، أو استفهامية استنكارية بمعنى ماذا استفدت من مالك؟! {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى}[الليل:١١] حينما يسقط في جهنم لن ينفعه المال، لن ينفعه أولاده.

يقال الوحيد من قبيلة بني هاشم الذى رفض أن يكون في الشِعب مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وخرج وانضم إلى بقية قريش في الحصار هو أبو لهب وأولاده، الوحيد من بنى هاشم الذى خرج ورفض أن يكون مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في الشِعب!، مع أن النبي -صلى الله عليه وسلم- سانده بعض المشركين كأبي طالب ودخلوا معه الشِعب. انظر إلى هذا الرجل الذى حتى لم يحفظ النسب!، ولم يحفظ أي شيء بينه وبين النبي-صلى الله عليه وسلم-!، بل في بدء الدعوة حينما جهر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالدعوة، أمر ابنيه أن يطلقا ابنتي النبي -صلى الله عليه وسلم-، و كان هذا رحمة بهما، فأبدلهما الله -عز وجل- خيرًا من أولاد أبي لهب[٥].

{تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} لم يستفد شيئاً من ماله وكسبه ...كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- {فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً}[الأنفال:٣٦] من العجيب جدًا أن يُكرس الإنسان طاقته وماله للصد عن سبيل الله!، عن دين الله عز وجل، الله الذى خلقه وأطعمه وكساه وأنعم عليه بكل هذه النعم، يُسخّر طاقته لحرب دين الله -سبحانه وتعالى-، أيُ خزيٍ هذا! لذلك استحق عذاباً خاصًا، فيه زيادة عن بقية الكفار {مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ}، هذا في الدنيا

---

٥ [عن قتادة بن دعامة:] كانت رُقيَّةُ عندَ عتبةَ بنِ أبي لهبٍ فلمّا أنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى {تَبَّتْ يدا أَبِي لَهَبٍ} سألَ النَّبيُّ ﷺ عُتبةَ طلاقَ رُقيَّةَ وسألَتْه رُقيَّةُ ذلك فطلَّقَها فتزوَّج عثمانُ بنُ عفّانَ رضِيَ اللهُ عنه رُقيَّةَ وتُوفِّيَتْ عندَه
الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٢١٩/٩ • إسناده حسن

[عن قتادة بن دعامة:] تزوَّج أمَّ كلثومٍ بنتَ رسولِ اللهِ ﷺ عُتيبةُ بنُ أبي لهبٍ وكانت رقيةُ عندَ أخيه عتبةَ بنِ أبي لهبٍ فلم يبنِ بها حتى بُعِث النبيُّ ﷺ فلما نزل قولُه تعالى تبَّتْ يدا أبِي لَهَبٍ قال أبو لهبٍ لابنَيه عتبةَ وعتيبةَ رأسي في رؤوسِكما حرامٌ إنْ لم تطلِّقا ابنتَي محمدٍ وقالت أمُّهما بنتُ حربِ بنِ أميةَ وهي حمالةُ الحطبِ طلِّقاها يا بَنَيَّ فإنهما صبأتا فطلَّقاها ولما طلق عتيبةُ أمَّ كلثومٍ جاء إلى النبيِّ ﷺ حينَ فارقَها فقال كفرتُ بدينِك أو فارقت ابنتَك لا تجيئُني ولا أجيئُك ثم سطا عليه فشقَّ قميصَ النبيِّ ﷺ وهو خارجٌ نحوَ الشامِ تاجرًا فقال النبيُّ ﷺ أما إني أسألُ اللهَ أنْ يُسلطَ عليك كلبَه فخرج في نجرٍ من قريشٍ حتى نزلوا بمكانٍ يُقالُ له الزرقاءُ ليلًا فأطاف بهم الأسدُ تلك الليلةَ فجعل عتيبةُ يقولُ ويلَ أمِّي هذا واللهِ آكلي كما قال محمدٌ قاتلي ابنُ أبي كبشةَ وهو بمكةَ وأنا بالشامِ فلقد غدا عليه الأسدُ من بينِ القومِ فضَغَمَه ضغمةً فقتله ، قال زهيرُ بنُ العلاءِ فحدَّثَنا هشامُ بنُ عروةَ عن أبيه أن الأسدَ لما أطاف بهم تلك الليلةَ انصرف فناموا وجُعِل عتيبةُ وسطَهم فأقبل السبعُ يتخطّاهم حتى أخذ برأسِ عتيبةَ فقَدَغه وخَلَف عثمانُ بنُ عفانَ رحمه اللهُ بعدَ رقيةَ على أمِّ كلثومٍ رضوانُ اللهِ عليها
الهيثمي (ت ٨٠٧)، مجمع الزوائد ٢١/٦ • مرسل وفيه زهير بن العلاء وهو ضعيف

فقد المال وفقد الولد... وأما في الآخرة {سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} لا تنطفئ ولا دخان لها، هذه النار التي لا تفتر أبدًا، {نار الله الموقدة} التي لا تنطفئ أبدًا -نسأل الله السلامة-، سيصلاها وسيدخل فيها ويقاسي حرها... لماذا؟ لأنه لطالما عانت منه الدعوة، طالما صد الناس عن هذا النور، فهو الآن يُلقى في النار- والعياذ بالله-.

دور المرأة في صلاح زوجها أو فساده

{سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ *وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ* فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} شيء عجيب جدا أن تُذكر زوجته معه في هذا السياق!...لماذا؟ كأن هذه السورة تشير إلى دور المرأة إما في صلاح زوجها أو في فساده ، كيف أنها كانت تُعينه، بل تشجعه، بل تدفعه دفعًا إلى الصد عن سبيل الله؛ فكانت معه في جهنم، تقاسي معه عذاب النار، بل زيد عليها في العذاب سواء في الخزي أو في العار كما سنشرح بإذن الله -عز وجل-.

{وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} فقوله سبحانه وتعالى {وَامْرَأَتُهُ} فهي مضافة إليه ،كان عليه أن يعظها، ألا يستمع إليها، كان لابد أن يعلمها، كان لابد ألا يسير خلفها؛ لكن هي دفعته دفعًا للصد عن سبيل الله، أخذها الكبرياء و دفعته إلى الكبر، وألا يرضى أن يكون تابعًا من أتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، أخذهم الكبر، أخذتهم العزة بالإثم، فرفضت و رفض هو استجابةً لها، وكانت تحثه و تدفعه دفعًا للصد عن سبيل الله، واعتراض طريق النبي -صلى الله عليه و سلم-، هكذا -أحبتي في الله- يشير القرآن إلى دور المرأة الفعال إما في إشاعة الفتنة أو في إطفاء الفتنة.

لذلك حينما تقرأ القرآن وتنظر إلى مواضع ذكر النساء في القرآن، تجد غالبًا حينما تذكر النساء غالبًا في نفس السورة يُذكر معها المنافقون؛ لأن المنافق دائمًا يدخل إلى المجتمع أو إلى إفساد المجتمع عن طريق المرأة، و هكذا أيضا ينبغي أن ينتبه المصلحون إلى دور المرأة.

حينما ترى سورة النساء، وسورة الأحزاب -بها آية الحجاب-وأيضا حينما ترى سورة النور- التي فيها احكام للنساء- تلاحظ أيضا ذكر المنافقين في هذه السور الثلاث تحديدًا. اهتمت السور بقضايا المرأة وحقوق المرأة التي فُقدت في المجتمع الجاهلي، وكيف أن الإسلام أعطى للمرأة دورها وأعطى لها حقها!،

تشير أيضا هذه السور إلى دور المنافقين في بث الفتنة وإشاعتها في المجتمع، ويحبون أن تشيع الفاحشة، وكيف أن المنافقين دائما يسعون لإفساد المجتمع عن طريق المرأة، وكيف أنهم يدخلون من بوابة تحرير المرأة ونزع الحجاب عن المرأة!!!، هذا الحجاب الذى يستر المرأة ويحفظها، والله –عز وجل– هو الذى فرضه...كما قال ربنا –سبحانه وتعالى– {ألا يعلم من خلق}[الملك:١٤]،الله –عز وجل– يعلم حاجة المرأة إلى الحجاب ويعلم حاجة المجتمع للحجاب.

ثم يخرج علينا المنافقون يُزهدون المرأة في الحجاب، ويعتبرون أن خلع الحجاب هو قمة تحرير المرأة!!! وهو في الحقيقة إفسادها و انحطاط بها إلى مستوى من البهيمية والشهوة. صان الله –عز وجل– المرأة وحفظها، ولكن المنافقين دائمًا يرغبون في إفساد المجتمع عن طريق المرأة.

فجاء في آخر سورة في المصحف قبل المعوذات هذا الدور السلبي للمرأة –امرأة أبي لهب–.

وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في ختام المصحف قال الله –سبحانه وتعالى– {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}: "لتكتمل الأقسام في القرآن"، فذكر الله –عز وجل–

- إبراهيم وامرأته نموذجًا للصلاح :الرجل الصالح والزوجة الصالحة،
- وذكر أبا لهب وامرأته :الرجل الفاسد والزوجة الفاسدة،
- وذكر فرعون وامرأته :الرجل الفاسد والمرأة الصالحة،
- وذكر نوح وامرأته ولوط وامرأته :الرجل الصالح والمرأة الفاسدة...

فانظر كيف أن المرأة قد تتبع زوجها وقد تخالف زوجها، وقد تدفع زوجها إلى الفتنة!

إذًا القضية ليست في الزوج، المرأة هي التي تختار، ولابد أن تجاهد المجتمع الذي تعيش فيه، ولابد لها ألا تعتبر أن لها زوجًا فاسدًا لا يطيع الله عز وجل فتتبعه!

ذكر الله –عز وجل–في ختام سورة التحريم امرأت فرعون كيف أنها قاومت هذا الفساد وكيف أنها أطاعت الله عز وجل.أسأل الله –عز وجل– أن يستر نساء المسلمين وأن يصلح لنا بيوتنا، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، محمد -صلى الله عليه وسلم-، قال ربنا -سبحانه وتعالى- في هذه السورة العظيمة التي تزف لنا البشرى بأن الله -عز وجل- قاطع كل من يعترض طريق نبيه -صلى الله عليه وسلم- وطريق المؤمنين من بعده، هذه السورة التي تذكرنا بلحظات الاستضعاف الأولى، حتى إذا مررنا بها يحدونا الأمل، هكذا كانت الدعوة ثم انتصرت، فإذا مررنا بنفس اللحظات تذكرنا هذه اللحظات، وكيف صبر النبي -صلى الله عليه وسلم-! وصبر المؤمنون من بعده على طريق هذا الدين!.

قال ربنا -سبحانه وتعالى- {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} ما: نافية أو استفهامية: لم يستفد شيئا أو أي شيء كسبه؟!

معجزة الإخبار بالغيب

{سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} هذه الآيات كانت معجزة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، والقرآن كله معجز. في هذه الآيات معجزة الإخبار بالغيب، كان من الممكن أن أبا لهب يُسلم ، كان ممكن إذا أوتي حظًا من الذكاء ،ولكنه الخزي والعار وقدرة الله المطلقة. كان ممكن أبو لهب يقول: أنا سأُبطل لكم القرآن، أنا سأسلم، فالسورة مكية من أوائل ما أُنزل... كان من الممكن أن يقول أبو لهب: أنا سأسلم، القرآن يقول: أنا سأصلى نارًا ذات لهب؟ أنا سأسلم وأموت على الإسلام. لكنها إرادة الله -عز وجل- النافذة، الله -عز وجل- الذي يعلم كل شيء -سبحانه وتعالى- وأنزل هذا القرآن على نبيه -صلى الله عليه وسلم- ليكون آية له وللمؤمنين.

حمالة الحطب حقيقة ومجاز

{سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ} قيل كانت تحمل الحطب ،الشوك ،العظام، الشجر، وتضعه في طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا هنا الأمر على الحقيقة ليس على المجاز، كانت

تبذل جهدًا! تخيل امرأة تخرج من بيتها -وهى امرأة ذات نسب في قريش- لتحتطب، لا تُرسل جارية لها؛ لكن هي تقوم بهذا بنفسها!.

حينما يريد الإنسان أن يُتم العمل ويُتقنه يقوم بالعمل بنفسه، مثلا؛ لو أن صاحب عمل -وهو غني- لكن هناك نقطة مهمة في العمل فتجده يقوم بنفسه عليها... فتخيل هذه المرأة تقوم بنفسها بجمع الحطب والشوك!، وتسير في الطرقات وتسأل أين يسير النبي -صلى الله عليه وسلم- في طريقه للدعوة؟! الرسول كان يسير يدعو الناس، فتضع الشوك في طريق النبي -صلى الله عليه وسلم-!

وقيل {حمالة الحطب} بمعنى: كانت تمشى بالنميمة تُوقع بين المؤمنين أو تُقلب المشركين على المؤمنين، تخيل! كيف أن الله -عز وجل- سمَّى السَّير بالنميمة "حمل الحطب"!.

كما سماه شيخ الإسلام ابن تيمية: "حطب القلوب" لأنه يؤدي إلى اشتعال القلب. فالإنسان يكون حذرا في كلامه، هذه الكلمة التي يتكلم بها الإنسان التي تؤدي إلى الفساد بين الناس هي أشبه بالحطب المشتعل الذي يزيد النار اشتعالا. فكانت تمشي بالنميمة بين المؤمنين، أو تقلب المشركين على المؤمنين حتى يعذبوهم...أو {حمالة الحطب} أنها كانت تُعيِّر النبي -صلى الله عليه وسلم- وأتباعه بالفقر، الذي يعير الناس سمى الله -عز وجل- هذا الفعل "حمل الحطب"؛ لأنه يشعل الصدور، يملأ الصدور بالحسرة.

وقيل حمالة الحطب أي أنها سوف تفعل ذلك في جهنم -والعياذ بالله- فقال ربنا سبحانه وتعالى: {سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} ومما يزيد عليه هذا اللهب أن امرأته تحمل الحطب في جهنم؛ لتزيد النار عليه -على أبي لهب وعلى وزوجته- ، كما كانت تدفعه دفعًا في الدنيا للصد عن سبيل الله، فها هي الآن تزيد عليه النار اشتعالًا، تحمل الحطب في جهنم، هذا من الخزي والعار أنها تكلف بالأعمال الشاقة في جهنم.

كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- عمن تبين له الحق وأعرض عنه في سورة المدثر {سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا} [المدثر:١٧] يتكلف الأعمال الشاقة في جهنم كصعود جبل مثلًا... فهذه تُكلف من العمل الشاق أن تذهب وتحتطب في جهنم من شجر خاص في جهنم، ثم تضع هذا الحطب عند مكان أبي لهب في جهنم؛ حتى تزداد النار عليه اشتعالًا، فكما قال ربنا عن أبي لهب {سيصلى نارا ذات لهب}، فهي حمالة الحطب {وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ}.

تحول محل الجمال إلى محل القبح

{فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} الجيد: العنق، كان غالب استعمال العرب لهذه الكلمة "الجِيد" في المدح، إذا أرادوا مدح امرأة بحسنها لا يقولون "العنق" إلا نادرًا لكن يقولون "الجيد" فذكر الله محل الجمال ليكون محل القبح.

كما اشتق القرآن لأبي لهب لفظا من كنيته مناسبًا للعذاب، اشتق لها وصفًا من فعلها مناسبًا للعذاب {حمالة الحطب}، ثم قال ربنا: {فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ} الحبل –كنا هو معروف–هو مجموعة من الليف المفتول، يُفتل ويُجمع، المسد: قيل الممسود أي المحكم الفتل، ليس حبلا عاديًا، بل حبلًا محكما، وقيل الحديد. ورد عن كثير من السلف أقوال في المقصود ب {في جيدها حبل من مسد}؟ قال بعضهم المقصود سلسلة من حديد التي ذُكرت في سورة الحاقة: {ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ}[الحاقة:٣٢] هذه السلسة التي من حلقات من حديد تُربط –والعياذ بالله– في جيدها، وتُسحب كالبهائم وهي تحمل الحطب في جهنم، هذا هو المشهد المخزي لها، وكيف أنها استمرت أيضًا على هذا الطريق حتى هلكت وأهلكها الله –عز وجل–.

{في جيدها حبل من مسد} قيل من حديد، وقيل كما روي عن سعيد بن المسيب: كان لها قلادة ثمينة، كان في الدنيا عندها سلسلة غالية من الذهب فباعتها؛ لتنفق المال في الصد عن سبيل الله،!، فعلق ابن كثير: فأعقبها الله عذابا من نفس الجنس{فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة}[الأنفال:٣٦]

هناك امرأة تضحي بالذهب لتنفق في سبيل الله، لتنفق على المسلمين، وهذه المرأة تضحي بذهبها لتصد عن سبيل الله–انظر كيف يُضحي أهل الشرك للبقاء على شركهم وكفرهم– تبيع الذهب لتصد عن سبيل الله! فأعقبها الله –عز وجل–عذابًا من جنس ما فعلت.

وقيل كانت تذهب إلى أنواع معينة من الشجر في مكة تحتطب منه وتجمع الشوك، فأيضًا ستذهب لنوع معين من الشجر في النار –والعياذ بالله– يقطع منه الليف والشوك فيربط حول عنقها {في جيدها حبل من مسد}.

الختام

انظر كيف كان الختام هذا المشهد؟!، كيف هبطت إلى مستوى الأنعام؟! كيف رُبط في جيدها هذا الحبل أو الحديد؟، لذلك الإمام الطبري اختار أن هذا الحبل من كل الأنواع من ليف، من الصدف، من الحديد؛ لأن المقصود {من مسد}: محكم الفتل، لا تستطيع فكاكًا منه، لا تستطيع فرارا منه.

انظر هذا المشهد ختام المصحف قبل المعوذات!، هذه المرأة التي صدت عن سبيل الله؛ يُوضع في عنقها هذا الحبل، وتُسحب وهي تحمل على رأسها الحطب؛ لتُلقي به على زوجها فتزداد النار اشتعالًا على زوجها.

انظر لهذا المشهد المهيب!، هذا المشهد الذي يسكب الطمأنينة في قلب المؤمنين مهما مروا بلحظات استضعاف، ومهما أوذوا في سبيل الله، ومهما مرت الدعوة بالقطع وبالصد وبالأذى لابد لها أن تستمر، لابد لها أن تنجح، لابد لها أن تفلح؛ لأن هذا الدين دين الله -سبحانه وتعالى-.

أنت حين تسمع الأذان تقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة، ستتم حتمًا مهما مرت بلحظات استضعاف، والمفلح هو الذي يقف في صفها لحظات استضعافها قبل قوتها. {لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا}[الحديد: ١٠] أيضا هناك أناس أنفقوا وقاتلوا، لكن الذين وقفوا في صف هذه الدعوة في لحظات الاستضعاف هم أعظم أجرًا؛ لأنهم كانوا أكثر إيمانًا بالغيب، كانوا يرون المستقبل بعين القرآن، بتوفيق من الله -سبحانه وتعالى-، كانوا يوقنون أن العاقبة للمؤمنين وليس للمشركين، حتى لو مات المؤمن قبل أن يرى النصر فسيراه بعيني إخوانه بعده لأن إخوانه حتما سوف يرون النصر.

أسال الله -عز وجل-أن يستعملنا لنصرة هذا الدين،

اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا، اللهم استعملنا ولا تستبدلنا.

اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم جنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن،

اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا،

اللهم وفقنا لكل ما تحب وترضى، وهيئ لنا من أمرنا رشدا،

اللهم بلغنا رمضان، اللهم بلغنا رمضان، اللهم بلغنا رمضان، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك،

اللهم بلغنا ليلة القدر وأعنا فيها على القيام على الوجه الذي تحبه يا ربنا وترضاه، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد ألا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب أليك.